الفصل الثالث

ثورات المصريين في العصور الوسطى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

ثورات المصريين في العصور الوسطى

الدين وعمارة الأرض ومقاومة الظلم

لم تكن الديانات السماوية لتأمر أهلها بالاكتفاء بعبادة الله تعالى وتزكية النفس وتترك عمارة الأرض وإصلاحها .

يقول الشيخ الشعراوي : " إن الإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الإنسان في الأرض؛ لأن الله يقول في كتابه الكريم : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } (هود : ٦١)

{ واستعمركم فِيهَا } أي طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة في الحياة تؤدي إلى عمار الأرض فهي من العبادة ، فلا تُأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هي الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سَيُبني عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساساً بدون مبنى ، فهذه هي الأركان التي يُبني عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض .

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأي منهم: كم تأخذ الصلاة منك في اليوم؟ ساعة مثلاً . والزكاة كم تأخذ منك في العام يوماً

obeikandl.com

واحداً في العام؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة في عمرك؟ فبالله عليك ماذا تفعل في الباقي من عمرك من بعد ذلك وهو كثير؟ .(١)

إن تعمير الأرض وإصلاحها من عبادة الله تعالى ، ونشر دين الله تعالى الذي يدعو إلى الحب والتعارف والتعاون بين سائر البشر من عبادة الله تعالى أيضاً .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم . . من ذكر وأنثى . . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} . . والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : {إن الله عليم خبير}

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله

(١) تفسير الشيخ الشعراوي أخبار اليوم ص ٦٩٠ ، ٦٩١ .

للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله . (١)

وكما أن عمارة الأرض من عبادة الله تعالى ، ونبذ الفرقة والاختلاف والدعوة إلى الألفة والتعاون بين سائر البشر من عبادة الله تعالى ، كذلك فإن حماية دين الله، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقتال الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وتطهير الأرض من الظلم والطغاة من عبادة الله تعالى كذلك .

وهؤلاء الطغاة الذين يجب على المؤمنين تطهير الأرض منهم هم ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هو د: ١٩]

والسبب في صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون في الأرض؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

فلم يكن المؤمن بالله ليترك الجبابرة والطغاة يفسدون في الأرض ويحتلون بلاد الله تعالى ويسومون أهلها سوء العذاب ، ويكرهونهم على ما لا يرضون من عبادة غير الله ويسخرنهم لأجل خدمتهم . وقد خلق الله تعالى الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على أ عجمي ولا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى .

يقول الإمام الأكبر د. سيد طنطاوي ، رحمه الله ، : " أن من تتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال ينحصر في رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان . " (٢)

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٤ ص ٧ دار الشروق .
(2) د. سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " في تفسير قوله تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }.

openkandil.com

ماهيَّة الفتوحات الإسلامية

عندما جاء نصر الله وفتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، بدأ الفرس والروم يعدُّون العدة للقضاء على هذه القوة الجديدة التي وحدت العرب،وباتت خطراً على ممالكهم ، وأخذ المسلمون على عاتقهم حماية الدعوة الإسلامية ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ؛ فكانت الفتوحات الإسلامية .

وقد قابلت الشعوبُ المحررة الفتوحاتِ الإسلامية بقبول حسن فقد أنقذتهم من ظلم الأكاسرة وطغيان القياصرة واستبداد الأباطرة .

إن أهالي البلاد المفتوحة في الشام ومصر والعراق اعتبروا العرب الفاتحين من بني جنسهم ، يرتبطون معهم بروابط بشرية وثيقة العرى ، وكذلك نظروا إليهم على أنهم محررون لهم من بطش البيزنطيين وسيادتهم العدوانية ، ثمَّ إن تلك الفتوحات العربية هيأت لهذه القاعدة من العالم الإسلامي الفرصة لاستعادة ماضيها المجيد ، وتراثها الغابر ، إذ وجد أهالي تلك البلاد في الدين الإسلامي رباطاً قويّاً جديداً يؤلف بين قلوبهم ، وفي اللغة العربية لساناً يترجم مشاعرهم ، ويوثق عرى وحدتهم السياسية والفكرية أيضاً . (١)

فتح مصر

كان نجاح حركة الفتوح الإسلامية في الشام خطوة أساسية ممهدة لفتح مصر ، فمصر والشام امتدادان طبيعيان لا بد من ارتباطهما لتحقيق الأمن في كل منهما ، وقد شعر المسلمون بعد فتح الشام أن فتح مصر يمثل ضرورة حربية بالنسبة لهم وذلك لأن البيزنطيين هالهم نجاح المسلمين في الشام وأخذوا يعملون على محاولة استرداه من أيديهم فعملوا على عرقلة تقدم المسلمين في جنوب الشام ، وهاجموا القوات الإسلامية من شمال الشام ، وأحس المسلمون أنهم محصورون بين القوات

(1) د. إبراهيم أحمد العدوي " تاريخ العالم الإسلامي " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١٤ ، ١١٥

openkandil.com

البيزنطية في آسيا الصغرى والقوات البيزنطية في مصر ، وقد لاحظ قادة الفتح الإسلامي أن مصر كانت تمثل مركز تمويل للقوات البيزنطية في الشام في حروبهم ضد المسلمين . (١)

لذا اتجهت أنظار المسلمين إلى مصر التي بشرهم النبي ﷺ بفتحها .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر ولم يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . " (٢)

لذا استقر رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتح مصر ، واختار لهذه المهمة عمرو بن العاص الذي أسرع نحو مصر واستطاع بجيشه الصغير ، الذي يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل ، أن يخترق سيناء دون جهد ، فوصل من رفح حتى بلبيس لم يقابله إلا حاميات قليلة من البيزنطيين ، كان أهمها في العريش التي استولى عليها في ذي الحجة ١٨ هـ / ديسمبر ٦٣٩ م ثم تقدَّم حتى وصل إلى أقوى الحصون البيزنطية في شرق مصر عند بلدة " الفرما " وهناك وقع التحام بين جيش المسلمين والبيزنطيين واستمر القتال شهراً أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون في المحرم ١٩ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى قلب مصر ، فاتجه عمرو بجيشه إلى بلبيس .

وقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينية التي سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم . (٣)

(1) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ١٨
(2) ذكره ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وأخرجه ابن عساكر .
(3) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .

لماذا رحَّب المصريون بالفتح الإسلامي ؟

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ، فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها ، وقد كان حالهم مع الفاتحين المسلمين كحالهم مع الإسكندر الأكبر " ذو القرنين رسول الله " .

والذي يؤكد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهم الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

أتمَّ عمرو بن العاص فتح مصر عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م وأظهر عمرو بن العاص بعد الفتح تسامحاً شديداً في معاملة المصريين فسمح للبطريك بنيامين بالعودة إلى الإسكندرية ، بعد أن ظلَّ مختبئاً حوالي ١٣ سنة في عهد البيزنطيين مما أدى إلى لم شمل الأقباط الذين حصلوا على حرية كاملة في إقامة شعائرهم ، فلم يحفل المسلمون بالخلافات الدينية بين المسيحيين ، والتي كانت تميز الحكم البيزنطي ، ولم يعد الأقباط يخشون أظهار عقيدتهم ، فقامت الكنيسة القبطية بأنشطتها الدينية دون تدخل من السلطة الحاكمة . (١)

لقد فرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنَّا اضطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السِّخال (٢) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (١)

---

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٩٦ .
(2)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجم الوسيط .

openkanal.com

لماذا لم يَثُرْ أقباط مصر على الولاة المسلمين ؟

لقد عامل المسلمون أقباطَ مصر معاملة الأهل والأصهار لا معاملة الذل والصَّغار التي كان يعاملهم بها الرومان ، ولم تكن معاملة المسلمين هذه أقباط مصر نابعة من تعاليم الإسلام العامة فحسب إنما من توصية خاصة من رسول الله ﷺ للمسلمين بأهل مصر خيراً .

فأقباط مصر لهم شأن خاصٌّ ومنزلة متميِّزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصَّة، يعِيَها عقل كلُّ مسلم ويضعها في السويداء من قلبه، فقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: " اللهَ اللهَ في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله"

رواه الطبراني

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : " ... استوصوا بهم (يعني قِبْط مصر) خيرًا، فإنهم قوَّة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " ، رواه أبو يعلى .

روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال" :إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا ".

وفي رواية: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا "، أو قال : " ذِمَّة وصِهرًا "

الذمة: هي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم منهم . (٢)

وقد صدَّقَ الواقع التاريخي ما نبَّأ به الرسول ﷺ فقد رحَّب الأقباط بالمسلمين الفاتحين لما بينهم من ذمة ورحماً وصهراً ، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين

---

(1) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

(2) شرح النووي على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربي – بيروت ج١٦ص ٩٧ .

كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتى إن بعض ولاة بني أمية فرض الجزية على مَن أسلم منهم، لكثرة مَن اعتنق الإسلام.

وأضحت مصر بوابة الإسلام إلى إفريقيا كلِّها، وغدا أهلها أعواناً في سبيل الله.(١)

لذا لا عجب إذا ما وقع على أحد أقباط مصر ظلمٌ لجأ إلى والي مصر لينصفه فإن لم ينصفه لجأ إلى خليفة المسلمين .

وكلنا يعرف قصة الشاب القبطي الذي سابق محمد بن عمرو بن العاص فسبق القبطي ابن حاكم مصر فضربه محمد بن عمرو بالسوط ضرباً شديداً وهو يقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين !

فانطلق هذا القبطي إلى المدينة المنورة حيث عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لينصفه من ابن الوالي لأنه يعلم أن عمر بن الخطاب يحب العدل ويحكم به ، ويكره الظلم وينهى عنه كما علمه الإسلام .

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]

ويدخل القبطي على عمر في مسجد النبي ﷺ فيقول: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك فيقول عمر : ما القضية ومن أنت ؟ فيقول: أنا قبطي من أهل مصر . فيقول عمر : ما القضية ؟ فيقول القبطي: سابقت محمد بن عمرو فسبقته فضربني بالسوط ضرباً شديداً وهو يقول لي: خذها وأنا ابن الأكرمين! فقال له عمر : اجلس هنا، وأمر الصحابة أن يكرموا هذا القبطي، وكتب عمر كتاباً إلى والي مصر بعدما حمد الله وأثنى عليه قال: " من عبد الله عمر بن الخطاب إلى والي مصر، سلام الله عليك وبعد: فإن انتهيت من قراءة كتابي هذا فاركب إليَّ مع ولدك محمد . "

(1) من بيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إلى أبناء مصر مسلمين وأقباطا بعنوان " لا تنسَوا دروس ثورة ٢٥ يناير" موقع بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠١١ ، نقلاً عن موقع د. يوسف القرضاوي .

obeikandl.com

وعندما دخل عمرو بن العاص وفي خلفه ولده محمد على أمير المؤمنين عمر ، قال عمر: أين قبطي مصر؟ فقال: هاأنذا يا أمير المؤمنين! قال: خذ السوط واضرب محمد بن عمرو ، فضربه على رأسه .

ثم قال له: اجعلها على صلعة عمرو !! فقال: لا يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربني، قال: والله لو فعلت ذلك ما حُلْنا بينك وبين ذلك، فما تجرأ عليك ولده إلا بسلطان أبيه .

ثم قال عمر قولته الخالدة : " يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! " .

ولما أراد عمرو بن العاص أن يوسع مسجده على حساب قطعة أرض أو بيت لامرأة قبطية مسيحية ، وأخذ الأرض فعلاً وأضافها إلى المسجد، ورفعت المرأة شكواها إلى عمر بن الخطاب، فما كان من عمر إلا أن ألزم عمرو بن العاص بهدم هذا الجزء الذي بني في المسجد ورد أرض هذه السيدة إليها مرة أخرى !!

لأن الصلاة في الأرض المغصوبة حرام بالإجماع ، وأن خلاف الفقهاء إنما هو حول صحتها وفي الثواب عليها . (١)

هكذا عاش المصريون في ظل الحكام المسلمين أهل يتمتعون بكل ما يتمتع به العرب المسلمون ولما لا ، والْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي حُقُوقِ أَهْلِ الذِّمَّةِ : أَنَّ لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ جَرَتْ عَلَى لِسَانِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ ، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا عِبَارَاتُ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ ، وَالشَّافِعِيَّةِ ، وَالْحَنَابِلَةِ . وَيُؤَيِّدُهَا بَعْضُ الآثَارِ عَنْ السَّلَفِ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّمَا قَبِلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا، وَدِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا . (٢)

(1) دار الإفتاء المصرية رداً عن سؤال : ما حكم الصلاة في مسجد أرضه مغتصبة ؟ .
(2)علي بن نايف الشحود " المفصل في شرح الشروط العمرية " ص ١٨٤

obeikandi.com

هذه شريعة الإسلام في الحكم فمن حكم بها فقد حكم بحكم الإسلام ومن خرج عليها وظلم الناس وأفسد فمن نفسه والشيطان والإسلام من حكمه براء ، نقول هذا لأن بعض أعداء الإسلام يحكمون على الإسلام بتصرفات بعض أبنائه ، والقاعدة عند المسلمين أن الإسلام يحكم على أفعال المسلمين ، ولا تحكم أفعال المسلمين على الإسلام .

بقيت قضية يثيرها أعداء الإسلام لتدليل على ظلم المسلمين لأهل مصر وهي قضية الجزية التي فرضوها عليهم .

الجزية عقوبة أم ضريبة ؟

ليست الجزية من مستحدثات الإسلام ؛ فلقد عُرفتْ عند اليونان الأقدمين بضريبة الرءوس ، وقد فرضت على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، كذلك فرضها الروم على الشعوب التي خضعت لحكمهم وتبعهم الفرس في ذلك .

الجزية في الإسلام مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة (اليهود والنصارى) مقابل ما تقدمه لهم الدولة الإسلامية من حماية ورعاية ، وبقائهم على ملتهم وعدم إكراههم على تركها ، وهي تقابل الزكاة المفروضة على المسلمين وبذلك يتساوى الفريقان : المسلم ،والذمي فيما يدفعه للدولة نظير ما تقدمه له من خدمات ، وما توفره له من حماية وأمان .

وتسقط الجزية عن الذمي إذا أسلم ، والجزية فرضت على الذكور دون الإناث ، وفرضت على القادرين منهم على دفعها ، وأعفى الصبيان من دفعها والشيوخ والمقعدون والعميان والرهبان . (١)

(١) د. عطية القوصي وآخرون " الحضارة الإسلامية " وزارة التربية والتعليم ص ١٤ .

obeikandl.com

ونترك لرجل مسيحيٍّ منصف الرد على من يعتبرون الجزية عقوبة فرضها المسلمون على غير المسلمين .

يقول د. نبيل لوقا بباوي " إن الجزية التي فُرِضَت على غير المسلمين في الدولة الإسلامية بموجب عقود الأمان التي وقعت معهم، إنما هي ضريبة دفاع عنهم في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم من أي اعتداء خارجي، لإعفائهم من الاشتراك في الجيش الإسلامي حتى لا يدخلوا حرباً يدافعون فيها عن دين لا يؤمنون به . ومع ذلك فإذا اختار غير المسلم أن ينضم إلى الجيش الإسلامي برضاه فإنه يعفى من دفع الجزية .

إن الجزية كانت تأتي أيضاً نظير التمتع بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة للمواطنين مسلمين وغير مسلمين، والتي ينفق عليها من أموال الزكاة التي يدفعها المسلمون بصفتها ركناً من أركان الإسلام .

وهذه الجزية لا تمثل إلا قدراً ضئيلاً متواضعاً لو قورنت بالضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الدولة الرومانية على المسيحيين في مصر والتي كانت قدرها ٢٥ ضعفاً بالنسبة للجزية ، ولا يعفى منها أحد !! في حين أن أكثر من ٧٠% من الأقباط الأرثوذكس كانوا يعفون من دفع هذه الجزية. فقد كان يُعفى من دفعها: القُصَّر والنساء والشيوخ والعجزة وأصحاب الأمراض والرهبان .

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام فقد فرضها اليونانيون القدماء على شعوب سواحل آسيا لحمايتها من هجمات الفينيقيين وعرفت باسم "ضريبة الرءوس" في القرن الخامس الميلادي، كما فرضها الفرس والروم على الشعوب الخاضعة لهم. (١)

ونَخْلُص مما سبق إلى أن عدم ثورة المصريين على الفاتحين العرب كانت أمراً طبيعيّاً لأنهم وجدوا في ظل الإسلام العدل والمساواة ،والأمن والأمان ،والحب والإخاء ،والحرية والرخاء .

(1) راجع د. نبيل لوقا بباوي " الجزية على غير المسلمين عقوبة أم ضريبة " دار البباوي للنشر.

obeikandi.com

لقد كان لأهل الذمة الحرية الكاملة في ظل الحكم الإسلامي في ممارسة شعائرهم الدينية العامة في مصر فكانت النواقيس تدق ، والأبواق ينفخ فيها ، والمواكب الدينية تسير بالصلبان والمجامر[1] دون اعتراض ولدينا في المصادر التاريخية أوصاف كثيرة لاحتفالات أعياد المسيحيين واليهود في مصر ، وكانت هذه الأعياد فرصة للهو لجميع الناس ، وكثيراً ما كان الخلفاء والحكام المسلمين يشاركون فيها بأنفسهم أو بممثلين عنهم تكرمة لأصحابها .

وقد خصص أهل الذمة في بعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فعمل كبراؤهم في التجارة والصيرفة والجهبزة[2] والكتابة في الدواوين كما عملت الطبقة المتوسطة منهم في الزراعة ، وفي صناعة النسيج والدباغة ، كما عمل الفقراء منهم في الأعمال المتصلة بنظافة الشوارع والأسواق وعملوا إسكافيين وحدادين.[3]

وظلت مصر هكذا طوال حكم ولاة الخلفاء الراشدين ، وولاة الأمويين فقد كان أغلب ولاة مصر يتسمون بالعدل والقدوة وحسن الخلق ، ويحافظون على عهودهم مع أهل الذمة ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي ، وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتسم بالقلق السياسي والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعددها ، ويشكو المصريون الظلم ، وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . "[4]

فهل سكت المصريون على الظلم والفساد ونقض العهد الذي تعاهد عليه المسلمون معهم ؟

اللهم لا .. فقد ثار المصريون على ظلم بعض ولاة بني أمية وبني العباس .

نقض الولاة الظالمين عهدهم مع أقباط مصر

لقد نهى النبي ﷺ عن ظلم أهل الذمة تحريم أو انتقاصهم حقاً من حقوقهم .

---

(1) المجامر : جمع مجمرة وهي الوعاء الذي يحوي الجمر والبخور .
(2) الجهبزة : هي العمل في بيت المال .
(3) د. عطية القوصي وآخرون " الحضارة الإسلامية " مرجع سابق ص ٢٠، ٢١ .
(4) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٧ .

obeikandl.com

" من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه؛ فأنا حجيجه يوم القيامة " (رواه أبو داود والبيهقي)

وعنه ﷺ أيضًا: "من آذى ذميًا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" (رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن)

وبرغم الموقف الشرعي السمح للإسلام حيال أهل الذمة فإن وضع أهل الذمة لم يمض على نسق واحد خلال ولاة الأمويين والعباسيين .

ففي عهد عبد الله بن عبد الملك الخليفة الأموي زاد الخراج على أقباط مصر وكان عمرو بن العاص قد صالح المقوقس بعد سقوط حصن بابليون على :

١- فرض الجزية على القبط على كل رجل ديناران ، ويعفى منها الشيخ الكبير والطفل والنساء .

٢- للمسلمين حق الضيافة على القبط إذا نزلوا عليهم لمدة ثلاثة أيام .

٣- بقاء الأرض للمصريين ووضع الخراج عليها . (١)

فزاد عبد الله بن عبد الملك مقدار الخراج المعمول به منذ الفتح بل العجيب في أمره أنه عندما وجد أن كثيراً من أقباط مصر يدخلون في الإسلام لم يسقط عنهم الجزية التي كانت تؤخذ منهم قبل إسلامهم ، والأعجب أن أقباط مصر لم يمنعهم ذلك من الدخول في الإسلام !!

الإسلام والوفاء بالعهد

زيادة مقدار الخراج والجزية على العهد المتفق عليه مخالف لشريعة الإسلام يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولا﴾ [الإسراء:٣٤]

أي إن العهد هو المسئول من المعاهِد أن يفي به ولا يضيعه ، حتى إن كان هذا العهد مع مشرك أو كافر .

(1) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

openkandil.com

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل :٩١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١]

وقد عاهد النبي ﷺ أصنافاً من المشركين كبني قريظة وبني النضير، وهادن قريشاً في الحديبية على ترك القتال عشر سنين، وأن من جاء من قريش مسلماً رده النبي إليهم . وهذا كله معلوم في كتب السنة والسيرة ." (١)

والمعاهد والذمي والمستأمن جميعهم معصومو الدم ، لا يجوز الاعتداء عليهم ولا التعرّض لهم . قال تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِم ﴾ [التوبة: ٤]

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " [رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه] .

وحذر النبي من الغدر والخيانة العهد .

عن ابنِ عُمَرَ أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إنّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ بنِ فُلاَنٍ". [متفق عليه] .

وجعل النبي من صفات المنافقين الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر" [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] .

ولقد كان النبي مثالاً حيّاً على الوفاء بالعهد فقد رد النبي ﷺ من جاءه من قريش مؤمناً وفاء بعهده مع قريش وقال النبي لأبى جندل الذي أتاه مسلماً في الوقت الذي كان يكتب فيه صلح الحديبية " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم

(١) " أسئلة جريئة وأجوبة صريحة حول تفجيرات الرياض مسائل في أحكام الجهاد " إعداد موقع الإسلام اليوم ص من ٩ : ١٤ .

على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم " [١] .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، وأرسلت قريش رجلين في طلبه " فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به،" واستطاع أبو بصير أن يقتل أحد الرجلين وعاد إلى المدينة وقال للرسول " يا رسول اللّه قد واللّه أوفى اللّه ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني اللّه تعالى منهم، فقال النبي ﷺ : "ويل أمه مسعر حرب (محرك لها وموقد لنارها) لو كان معه أحد "، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلَّتْ منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ وسلم تناشده اللّه والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم " [٢] .

ويروى سيدنا حذيفة بن اليمان سبب تخلفه عن القتال هو وأبيه في غزوة بدر وكان المسلمون في حاجة ماسة له فقد كان عدد المسلمين ثلث عدد الكفار فيقول : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى، حسيل. قال : فأخذَنا كفارُ قريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا: ما نريده. ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر. فقال" انصرفا. نَفِى بعهدهم، ونستعين الله عليهم " [رواه مسلم] .

لقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بعهد الكفار المحاربين وهو في مسيس الحاجة إلى رجل فإذا به يرفض اشتراك رجلين وفاء بعهد الكفار الذين جاءوا لقتاله ويقول : "نفى بعهدهم ونستعين الله عليهم " .

---

(١) ابن كثير " البداية و النهاية " الجزء الرابع غزوة الحديبية .

(١) تفسير ابن كثير لقوله تعالى {وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }

أي دين هذا ؟! وأي رجل هذا ؟! وأي خلق هذا ؟!

إنه دين الإسلام الذي جاء به صاحب الخلق العظيم محمد سيد الأنام ﷺ ، وكانت نتيجة الإيمان بالله والتمسك بأخلاق الإسلام وعلى رأسها الوفاء بالعهد أن نصر الله تعالى الإسلام وأعز المسلمين وأذل الشرك والمشركين . وهكذا كان صحابة الرسول الكرام محافظين على الوفاء بالعهد فعن " جُوَيْرِيَةَ بْنَ قُدَامَةَ التَّمِيمِى قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ " [رواه البخاري] .

ولا يجوز للمسلمين بعد أن عاهدوا قوماً أن يطلبوا منهم الزيادة وفى هذا يقول الإمام الشوكاني : " لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبين الكفار على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العقد وهما محرمان بنص القرآن والسنة " (١).

والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم ، وإذا قالوا صدقوا في قولهم ، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة ، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب ، وأعلى الدرجات .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ٢٠] .

ولا ينقضون شيئاً من العهود والمواثيق التي التزموا بها . وصدَّر سبحانه وتعالى صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم نقضهم للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف سبحانه العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .

وجملة ﴿ وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق ﴾ تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله تعالى ومع غيره من عباده . (٢)

(١) الشوكانى " نيل الأوطار " الجزء الثامن باب الأمان والصلح والمهادنة .
(2) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " مرجع سابق ص ٢٣٧٧

obeikandl.com

كما أن النبي ﷺ قد أكدَّ على وجوب الالتزام بالعهود التي اتفقوا عليها والشروط التي ارتضوا بها .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " المسلمون على شروطهم" (أبو داود، والحاكم ، والبيهقى)

تعسُّف سليمان وعدل عمر

مع كل هذه الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي تؤكد على وجوب الوفاء بالعهد وعدم نقض المواثيق إلا إن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) عَيَّن أسامة بن زيد (١) على الخراج في مصر ، وكتب إليه يأمره بالتشدد في جمع الخراج والجزية ونفَّذ أسامة سياسة الخليفة فتشدد في جمع الأموال ، وأخذ الجزية من الرهبان وكانوا يعفون منها . (٢)

وبدأ المصريون يتذمرون بسبب تعسُّف سليمان بن عبد الملك وعامله على الخراج ولكن شاءت حكمة الله تعالى أن يخفف عن المصريين فتُوفِّي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز الذي تبرأ من كل مظالم بني أمية ، وعمل على إنصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه مُعِيداً سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب .

وكان من أوَّل ما قام به عمر بن عبد العزيز من أعمال وحتى قبل أن يُدفَن سليمان بن عبد الملك هو عزل أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما بلغه عنه من استنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأموية ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاءً له على ما اقترفته يداه ، وأصدر الخليفة أمره بوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن أهلها .

وكان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته أن دخل كثير من أقباط مصر في الإسلام ، مما أثَّر على حصيلة الجزية والخراج فكتب حيان بن شريح ، والي جند

---

(1) أسامة بن زيد صحاب الخراج على مصر غير أسامة بن زيد الصحابي الجليل الذي تُوفِّي عام ٥٤ هـ .

(2) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ٢٧ .

openkanal.com

مصر ، يقترح على عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من الأقباط حتى في حالة إسلامهم خوفاً من أن تنقطع موارد الدولة .

فكتب إليه عمر: " أما بعد : فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ." (١)

وكتبت امرأة مصرية مسكينة تشتكي لعمر: أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتي من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبتُ كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل آمره بأن يبني لك ذلك يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها . (٢)

نبوءة النبي ﷺ بثورة القبط

ولكن بعد وفاة عمر بن عبد العزيز لم يَنهج خلفاء بني أمية نهجه في معاملة أهل مصر ففي عهد يزيد بن عبد الملك زادت الجزية قيراطاً على الدينارين المقررين ، وبهذا نقض يزيد عهد أقباط مصر فكيف يزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يُزَاد عليهم شيء على الفرد منذ الفتح في شروط الصلح مع القبط ؛ مما أدى إلى ثورة القبط على

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار ذكر الخطط الآثار " ج١ ص ٩٧ .
(2) ابن عبد الحكم " سيرة عمر بن عبد العزيز " ص ١٦٣، ١٦٤ نقلاً عن علي محمد الصَّلاَّبيَّ "الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار" ج ٣ ص ٤٨٦ .

openkanal.com

هذه الزيادة ثورات مختلفة ، وفي أماكن مختلفة سنة ١٠٧ ، ١٢١، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ٢١٦ هـ وامتنعوا عن دفع الجزية ، والخراج أثناء تلك الثورات .

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بثورة القبط أهل الذمة ومنعهم ما في أيديهم بسبب ظلم بعض الولاة المسلمين .

خَرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً؟ قالوا: وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة ؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق والمصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمّته وذمّة رسوله فيشدّ اللّه عز وجل قلوب أهل الذمّة فيمنعون ما في أيديهم . "

وصدق رسول الله ﷺ فقد ظلم الولاة الأمويين والعباسيين أقباط مصر وانتهكوا ذمة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ فثار أقباط مصر عليهم ومنعوا الخراج عنهم وقاوموا عمالهم وتعاقبت الثورات لأكثر من مائة عام (١٠٧ – ٢١٦ هـ) وللأسف قابل الولاة العرب هذه الثورات بكل عنف وقسوة وبهذا أضافوا إلى ظلم المصريين سفك دمائهم بغير حق!!

ثورات القبط على الولاة الظالمين

لم تكن ثورات أقباط مصر على والولاة العرب بسبب اضطهاد ديني كما حدث مع الهكسوس والفرس والبيزنطيين ، ولم يكن بسبب إهانة كرامتهم ، ولكن بسبب الطمع في أرزاقهم بزيادة الجزية والخراج ، ولم تكن الزيادة كبيرة أو مجحفة إنما كانت قيراطاً واحداً (١) لكن المصريين أبوا إلا إلزام جباة الجزية بما تعاهد المسلمون مع أقباط مصر عليه .

كتب عبد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصر إلى هشام بن عبد الملك، بأنّ أرض مصر تحتمل زيادة الجزية على المصريين ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقصت كورة (٢) تنو ونمي وقربيط وطرابية ، وعامة الحوف الشرقيّ، فبعث إليهم

(1) القيراط : في القياس جزء من أربعة وعشرين . المعجم الوسيط .
(2) الكورة : البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال (ج) كور . المعجم الوسيط .

الحر بن يوسف بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر، وكان انتقاضهم في سنة ١٠٧هـ .(١)

إذن لم تكن ثورة المصريين الأولى على العرب إلا نتيجة ظلم وقع عليهم ، وبرغم أن المصري هادئ ومسالم إلا أنه لا يقبل الضيم أبداً .

يقول د. حسين نصار " اشتهر المصري بالدعة ، وحب السلام ، والقناعة والرضا بما يتعاقب عليه من أحوال ، وكراهية العنف .

وتلقف تلك الخصائص المؤرخون الذين لا يتعمقون الأمور ، ولا يستقصون البحث، فظنوها ضعفاً في طبيعة المصري ، وخوراً في قلبه ، وقال قائلهم عن المصريين: " عبيد لمن غلب " .

ذلك ما شتهرت به مصر عند القدماء المؤرخين ، فما مبلغ صحة هذه الشهرة ، وما أسسها ؟ " (٢)

إن ثورات المصريين ضد الطغاة سواء أكانوا حكاماً محليين ، أو أجانب تشهد بكذب هذه المقولة التي وصم المؤرخون بها تاريخ مصر المجيد ، وقد سبق أن بينَّا ثوراتهم ضد بيبي الثاني وابنه ، وثوراتهم ضد الهكسوس ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، وهاهم يثورون لأكثر من مائة عام ضد الظالمين من الحكام العرب بسبب زيادة قيراطين فقط على الجزية .

وتستمر ثورة المصريين على جور جباة الخراج ، ويرابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم ينتقض أهل الصعيد، ويحارب القبط جباة الخراج في سنة١٢١هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً، وظفر بهم وخرج بَخْنَسْ رجل من القبط في سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان:

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ٩٩ .
(2) د. حسين نصار " الثورات الشعبية في مصر الإسلامية " الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٨

موسى بن نصير أمير مصر، فقتل بخنس في كثير من أصحابه، وذلك في سنة ١٣٢هـ ، وخالفت القبط بمدينة رشيد ؛ فبعث إليهم مروان بن محمد الجعديّ فهزمهم.

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم، وذلك في سنة ١٥٠ هـ ، وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشرود والأريسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبيّ على أهل الديوان، ووجوه مصر، فخرجوا إليهم فبتَّهم القبط، وقتلوا من المسلمين. فألقى المسلمون النار في عسكر القبط، وانصرف المسلمون إلى مصر منهزمين .

وفي ولاية موسى بن عليّ بن رباح على مصر خرج القبط ببلهيب في سنة ١٥٦هـ، فخرج إليهم عسكر فهزمهم، ثم انتقضوا مع من انتقض في سنة ٢١٦هـ . (١)

وهكذا لم يستلم أقباط مصر لأي ظلم وإن كان صغيراً فقد شبُّوا على العزة والكرامة ، وعدم الرضا بالضيم .

والبعض يستشهد بثورات القبط هذه على اضطهاد العرب أقباط مصر ، وأن العرب المسلمين لا يختلفون عن غزاة مصر السابقين : الهكسوس ، والفرس ، واليونان ، والروم !!

وللرد على هؤلاء نذكِّرهم بالحقائق الآتية :

١- أن ظلم أهل الذمة أو الاعتداء عليهم ليس من شريعة الإسلام ، وقد جلَّينا هذا الأمر بشيء من التفصيل فيما سبق .

٢- أن الظلم والاضطهاد ونقض العهود لم يقتصر على الأقباط المسحيين فقط إنما شمل العرب الذين استوطنوا مصر ، والأقباط المسلمين وقد صاروا أغلبية بعد مرور نحو مائتي عام على الفتح العربي مصر كما سنبين لاحقاً .

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ٩٩ .

obeikandi.com

٣- أن مقاومة الولاة العرب الظالمين كانت بالتعاون بين أقباط مصر والعرب الذين استوطنوا ريفها في الحوف ، وبلبيس ، والصعيد ...

٤- أن عدل الولاة العرب مع أقباط مصر هو الأصل ، وأن ظلمهم لهم هو الاستثناء ؛ بدليل اعتناق غالبية أقباط مصر الإسلام الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

القبائل العربية التي استوطنت مصر

بعد أن فتح العرب مصر وبلغ القبائل العربية ما في مصر من الخير العميم هاجرت بعض القبائل إلى مصر واستوطنت بريفها واتخذت الزراعة معاشاً لها فعمَّرت قرى خاوية ، واستصلحوا أراضي بوراً ، وخالطوا أقباط مصر ولم يجوروا على أرزاقهم ولا ممتلكاتهم ؛ فدخل الأقباط في دين الله أفواجاً راغبين غير مكرهين .

ففي ولاية الوليد بن رفاعة الفهميّ على مصر، نقلت قبيلة قيس إلى مصر في سنة ١٠٩ هـ، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من قبيلتي : فهم ، وعدوان، فوفد ابن الحبحاب والي مصر على الخليفة هشام بن عبد الملك، فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتاً (عائلات) ، فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط، فعرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقيّ، وفرّقهم فيه.

ويقال: إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال: ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان. فكتب إلى هشام: إنّ أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه قد شرّف هذا الحيّ من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم وإني قدمت مصر، ولم أر لهم حظاً إلا أبياتاً من فهم، وفيها كُوَر (قري) ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً وهي بلبيس. فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس، فليفعل.

فكتب إليه هشام: أنت وذاك، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نضر، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فصار ببلبيس: ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر. مالت إليه قيس فمات مروان، وبها ثلاث آلاف أهل بيت، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم . (١)

وعاشت القبائل العربية مع أقباط مصر : مسلمين وغير مسلمين في تعاون وإخاء واختلطت أنسابهم ، وأصبحوا نسيجاً واحداً .

يقول المقريزي : " وكان من خبر أراضي مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات . " (٢)

كما أن الولاة العرب لا يفرقون في المعاملة بين عربي وقبطي ، والظالمون من هؤلاء الولاة لم يقصروا ظلمهم على القبط فحسب بل شمل ظلمهم العرب المستوطنين أيضاً .

وكما استعرضنا ثورات القبط على الولاة العرب نستعرض الآن ثورات العرب المستوطنين على الظالمين من الولاة العرب .

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠٠ .
(2) نفسه ج١ ص ١٠٢ .

ثورات المستوطنين العرب على الولاة الظالمين

في عام ١٦٧ هـ ولي موسى بن مصعب على مصر وأخذ في أيام إمرته على مصر يتشدد على الناس في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ؛ ولقي الناس منه شدائد وساءت سيرته وارتشى في الأحكام ؛ ثم رتب دراهم على أهل الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند وتشغبوا عليه ونابذوه، وثارت قيس واليمانية وكاتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه ثم خرج هو بنفسه في جميع جيوش مصر لقتال قيس واليمانية؛ فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم وأسلموه فقتل، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة؛ وكان قتله لسبع خلون من شوال سنة ١٦٨هـ . (١)

وهكذا لم يستثن موسى بن مصعب والي مصر العرب من ظلمه بل عمَّ ظلمه كل المصريين : عرباً وأقباطاً فثاروا عليه وقتلوه .

وفي سنة ١٧٣هـ لما ولي عمر بن غيلان خراج مصر شدد على الناس وعلى أهل الخراج، فنفرت القلوب منه وثار عليه الجند وقاتلوه وحصروه في داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير ، فانحط قمر عمر بن غيلان وتلاشى أمره مع الجند وغيرهم ؛ وبلغ الخليفة هارون الرشيد ذلك فعظم عليه عدم قيام محمد بن زهير بنصرة عمر بن غيلان المذكور فعزله عن إمرة مصر بداود بن يزيد بن حاتم المهلبي في سنة ١٧٣هـ ، وتوجه إلى الرشيد فزجره ثم جعله من جملة القواد وندبه للاستيلاء على مال محمد بن سليمان بالبصرة بعد موته . (٢)

وفي سنة ١٧٨هـ ، كشف إسحاق بن سليمان أمير مصر أمر الخراج، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليهم أهل الحوف وعسكروا فبعث إليهم الجيوش، وحاربهم فقتل من الجيش جماعة، فكتب إلى أمير المؤمنين: هارون الرشيد يخبره بذلك، فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم، وبعث به إلى مصر، فنزل الحوف وتلقاه أهله بالطاعة، وأذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله.

(1) ابن تغري بردي "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ج ١ ص ١٥٦ .
(2) نفسه ج ١ ص ١٦٤

Obeikandi.com

وفي عام ١٨٦ هـ خرج أهل الحوف على الليث بن الفضل البيودي أمير مصر، وذلك لأنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم الليث في أربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦هـ ، فالتقى معهم في رمضان فانهزم عنه الجند ، فحمل بمن معه على أهل الحوف، فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة، وبعث الليث إلى الفسطاط بثمانين رأساً من رءوس القيسية، ورجع إلى الفسطاط، وعاد أهل الحوف إلى منازلهم، ومنعوا الخراج .

فخرج الليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث معه، وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا، فولاه الخراج، وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر، وخراجها.

وفي عام ١٩١هـ في ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ في أمرهم فنزل بلبيس في شوال سنة ١٩١هـ ، وصرف الحسين بن جميل عن أمارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ١٩٣هـ . (١)

وفي سنة ٢١٤ هـ وفي أمارة عيسى بن يزيد الجلوديّ على مصر ظلم صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس، وزاد عليهم في خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا، فبعث عيسى بابنه محمد في جيش لقتالهم، فنزل بلبيس، وحاربهم فنجا من المعركة بنفسه، ولم ينج أحد من أصحابه وذلك في صفر سنة ٢١٤ هـ ، فعزل عيسى عن مصر.

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠٠ .

وولى عمير بن الوليد التميميّ فاستعدّ لحرب أهل الحوف، وسار في جيوشه في ربيع الآخر، فزحفوا عليه واقتتلوا، فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا، فتبعهم عمير في طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الحوف، فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

فولى عيسى الجلولي ثانياً، وسار إليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، وأحرق ما ثقل عليه من رحله، وخندق على الفسطاط وذلك في رجب، وقدم أبو إسحاق بن الرشيد من العراق فنزل الحوف، وأرسل إلى أهله فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم في شعبان ودخل وقد ظفر بعدة من وجوههم إلى الفسطاط في شوال، ثم عاد إلى العراق في المحرّم سنة ٢١٥ هـ بجمع من الأسارى . (١)

وهكذا كما ترى عزيزي القارئ أن الحكام العرب لم يخصُّوا أقباط مصر بالظلم إنما سوُّوا بين جميع سكان مصر عرباً وأقباطاً ، ولقد تعاون العرب المسلمين والأقباط : مسيحيين ومسلمين في مقاومة الظالمين من الخلفاء وولاتهم وعمالهم ، وامتزجت دماؤهم جميعاً بتراب مصر الطاهر ، نقول هذا للذين يحاولون تشويه العلاقة الحميمة والأخوة الصادقة واختلاط الأنساب التي كانت بين العرب والأقباط.

الثورة المصرية الكبرى على عمال الخليفة المأمون

في سنة ٢١٦هـ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد، وقبطها وأخرجوا عمال الخليفة المأمون ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال الخليفة فيهم، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرّم سنة ٢١٧ هـ ، فسخط على عيسى بن منصور الرافقي، وكان على أمارة مصر وأمر بحل لوائه، وأخذه بلباس البياض عقوبة له. وقال: لم يكن هذا الحدث

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠١ .

العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد، وارتحل هو إلى سخا، وبعث بالأفشين إلى القبط وقد خلعوا الطاعة، فأوقع بهم في ناحية البشرود، وحصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال، وبيع النساء والأطفال، فسبى أكثرهم، وتتبع المأمون كل من يومي إليه بخلاف، فقتل ناساً كثيراً، ورجع إلى الفسطاط في صفر ومضى إلى حلوان، وعاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر، وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً. وكان خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون على حكم الإنصاف في الجباية أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار. (١)

وبعض الكتابات المسيحية ، خاصة على المواقع الإلكترونية ، تسمي ثورة المصريين على جور عمال الخليفة المأمون بثورة البشروديين التي قاوم القبط فيها الغزاة العرب ووقفوا في وجه المحتلين المسلمين ، وهذا الكلام عارٍ عن الصحة فنعم اضطهد عمال المأمون أهل البشرود ونقضوا عهودهم ولما ثاروا نكَّلوا بهم هذا حق ، والحق أيضاً كما سبق وأكدنا أن ظلم الولاة العرب ونقضهم للعهود لم يكن من شريعة الإسلام ، ولم يفرِّق بين عرب وأقباط ، كما أن المأمون قد عاقب عماله على ما ارتكبوه في حق المصريين ، وسجَّل التاريخ غضب المأمون على واليه بمصر والألفاظ التي عنَّفه بها إذ قال له : إن هذا الحدث العظيم لم يكن إلا عن أفعالك ، وفعل عمالك ، حمَّلتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد . (٢)

كما أن المأمون طاف القرى المصرية واجتمع بالمصريين ليمحوا آثار ما ارتكبه هو وعماله في حقهم .

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠١ .
(2) نفسه ج١ ص ١٠١ .

ودونك هذه القصة التي تؤكد حب أقباط مصر للخليفة المأمون برغم ما صنعه عماله بهم .

قصة المأمون مع مارية القبطية

ذكر المقريزي أن المأمون، لما سار في قرى مصر كان يبني له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله، وكان يقيم في القرية يوماً وليلة، فمرّ بقرية يقال لها: طاء النمل، فلم يدخلها لحقارتها، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له إن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي، والقبط تعيرني بذلك، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف، ولعقبي، ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاءً كثيراً. فرقّ لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ، وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة، وغير ذلك مما جرت به عادته، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم والقاضي أحمد بن داود، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده، ولم تكل أحداً منهم ولا من القوَّاد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً، حتى أنه استعظم ذلك .

فلما أصبح، وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق. فلما عاينها المأمون من بعد. قال لمن حضر : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته .

فقالت: لا واللّه لا أفعل فتأمّل الذهب، فإذا به ضرب عام واحد كله، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك .

فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا .

فقال: إن في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك فردي مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين، هذا وأشارت إلى الذهب، من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتي فدّان بغير خراج، وانصرف متعجباً من كبر مروءتها وسعة حالها . (١)

ومن هذه القصة تتضح لنا عدة أمور منها :

١- كثرة خيرات مصر ، وغنى أرضها ، وأنها لا تحتاج إلا إلى حسن الإدارة والعدل حتى تؤتي أكلها وتصبح سلة غلال العالم كما كانت أيام يوسف عليه السلام.

٢- حب أقباط مصر للعرب المسلمين ، برغم ما قد يقع من بعضهم من تجاوزات.

٣- تنافس أهل القرى المصرية في استضافة المأمون خليفة المسلمين ورجاله ، واعتبار امتناعه عن دخوله قرية من القرى معرَّة ، ودخوله القرية شرف لأهلها يتوارثه الأبناء عن الآباء .

٤- حسن سياسة المأمون مع المصريين فبعد أن قضى على الثورة استل السخائم من نفوسهم بجولته في القرى المصرية ، وتلطفه مع أهلها .

فلا عجب أن يكثر دخول أقباط مصر في الإسلام بعد زيارة الخليفة المأمون لمصر حتى صاروا أغلبية .

(1) المقريزي " المواعظ والاعتبار " مرجع سابق ج١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

obeikandl.com

ويذكر أحمد حسين في موسعته عن تاريخ مصر أنه منذ تاريخ قدوم الخليفة المأمون إلى مصر عام ٢١٧هـ قد أصبحت الأغلبية في مصر إسلامية وذلك لدخول الكثير من الأقباط في دين الإسلام ومن بقي منهم على دينه كفَّ عن المحاربة . (١)

ونعود ونذَّكر أن دخول الأقباط المصريين في الإسلام كان طواعية ولم يكرهوا عليه ليس فقط لأن الله تعالى نهى عن الإكراه في الدين لكن أيضاً لأن عقيدة المصري هي أعز ما يملك ويحرص عليه ولا يساوم عليها أبداً والتاريخ شاهد على ذلك .

يقول تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا . (٢)

ومن هذه الثورات يتأكد لنا عدم قبول المصريين الجور في أي وقت ومن أي حاكم، كما يتأكد لنا أن سبب الجور ناتج عن سوء سياسة الحكام وولاتهم لا عن تعاليم الإسلام وأحكامه .

مصر في عهد الدول المستقلة

ظلت مصر ولاية عباسية حتى تمكن أحمد بن طولون من الاستقلال بها عن الخلافة العباسية عام ٢٥٤هـ ولم يعد يربطها بالخلافة العباسية إلا رباط شكلي يتمثَّل في ذكر اسم الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المساجد أو ضرب العملة باسمه ، ثم أخيراً إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنويّاً . (٣)

(1) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ج٢ ص ٤٦٣
(2) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٨٢
(3) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ١١٩ .

obeikandl.com

وبعد سقوط الدولة الطولونية التي دامت ٣٨ عاماً عادت مصر ولاية عباسية لمدة ٣٠ عاماً ثم استقل محمد بن طغج الإخشيد بها عام ٣٢٣هـ وخلفه بعد موته أربعة من أسرته ولقد دامت الدولة الإخشيدية مدة ٣٤ عاماً .

وانتهز المعز لدين الله الفاطمي عدم الاستقرار الموجود في مصر في أواخر الدولة الإخشيدية بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسية في بغداد لانشغالها بصد غارات البيزنطيين فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة الصقلي في سنة ٣٥٨ هـ وتمكن بهذا الجيش من إقامة الخلافة الفاطمية في مصر تلك الخلافة التي دامت نحو قرنين من الزمان .

وبهذا انقطعت صلت مصر بالخلافة العباسية تلك الصلة التي دامت من عام ١٣٢هـ إلى ٣٥٨ هـ .

ولقد نعمت مصر طوال فترات الاستقلال بالاستقرار ولم تندلع فيها ثورة مصرية تذكر برغم تعدد الدول واختلاف الحكام .

يقول حسين نصار : " إن مصر بقيت هادئة طوال العصر الأموي ، فلم تعرف الاضطرابات ولا الثورات الاقتصادية ، لكن ما إن أظلها العهد العباسي حتى كثرت الثورات وتعددت وخطر أثرها ، فلم يكن يمر عام أو عامان حتى تقوم ثورة سببها زيادة الخراج أو منع العطاء أو التحايل في استخراج أموال الأهالي ، أو فرض ضرائب جديدة ، وتلاحقت الثورات الاقتصادية الكبيرة ، ولم تسترح مصر من هذا اللون من الثورات إلا في عهود الاستقلال تحت ظل الطولونيين ثم الإخشيديين . وقام ببعض هذه الثورات الجند دون أن يتدخل المدنيون، وتدخلوا في بعضها بعد أن بدأها الجند . واشترك في بعضها الآخر المسلمون والأقباط ، وخاصة الثورات التي قامت بسبب فرض ضرائب جديدة أو بسبب زيادة الخراج ." (١)

(1) د. حسين نصار " الثورات الشعبية في مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ٥٧ .

obeikandl.com

كذلك لم ينخرط المصريون في جيوش هذه الدول ولم يشاركوهم في حروبهم .

فقد كان جيش الدولة الطولونية يتكون من الأتراك والسودانيين والعرب .

وكذلك كان جيش الدولة الإخشيدية نحو هذا ، أما الدولة الفاطمية فتكونت جيوشها من البربر والمغاربة والأتراك والأرمن .

ولم يكن لدى المصريين جيوشاً لتستقل بحكم مصر فرضت بحكم هذه الدول ما داموا لا يقتربون من المحظورات الثلاثة :

١- محاربة دينهم أو مذهبهم الديني .

٢- إهانة كرامتهم .

٣- نقض عهودهم ونهب ثرواتهم .

وقد حرص حكام هذه الدول على ألا ينتهكوا أي حرمة من حرمات المصريين ، كما عملوا على نشر العدل ومساعدة الفقراء فرضي المصريون بحكمهم ، ولم يتدخلوا في صراعاتهم الداخلية والخارجية .

الحاكم بأمر الله واضطهاد أهل الذمة

يعتبر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الاستثناء الوحيد من هؤلاء الحكام الذين استقلُّوا بمصر ، كان الحاكم بأمر الله قد أمضى السنوات العشر الأولى من حكمه ينتهج سياسة التسامح التي اتبعها أبوه وجده من قبله مع أهل الذمة (النصارى واليهود) من سكان مصر حيث كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ويشاركون في الحياة العامة بكل سبيل وإذا بالحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٥ هـ ينقلب على أهل الذمة وينكِّل بهم تنكيلاً بشعاً وخرج في معاملتهم عن تعاليم الإسلام ، وعهد الذمة ، وعن سمات البشر الأسوياء .

ولم يكن اضطهاد الحاكم لأهل الذمة منبعثاً من تعصب ديني بقدر ما كان انحرافاً عن الطبيعة الإنسانية ، وشذوذاً عن أخلاق البشر السوية لذا فلا عجب أن عمد

obeikandl.com

الحاكم إلى امتهان الإنسان بصرف النظر عن أصله ودينه وجنسه ، وليس أدل على ذلك من أنه في هذه السنة نفسها أصدر أمره بسب الصحابة وأن تنقش ألفاظ السب على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع والدروب ، كما أصدر بتعميم المذهب الشيعي وإلغاء المذهب السني وغير ذلك . مخالفاً الأمر الذي قطعه جوهر الصقلي للمصريين وسار عليه العمل في أيام المعز والعزيز وهو ألا يتعرض للمصريين في مذهبهم ، وفي هذه السنة أيضاً على ما يقول المقريزي كان حظر الحاكم على المصريين أكل الملوخية والجرجير وذبح الأبقار السليمة ومنع بيع القفاع (١) ولا يباع شيء من السمك بغير قشر ! (٢)

كما أمر بقتل الكلاب ، ومنع بيع العنب ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً . ثم عدل عن كل أفعاله الشاذة بعدما أحس بموجة غضب شديدة تعمَّ البلاد فراح يلغي كل ما أصدره من أوامر صدمت مشاعر الناس ، وأظهر التقشف والتنسك ، واستبدل ركوب الحمير بالسير في المواكب الفخمة ، وقرر الإحسان إلى الفقراء والغرباء وعابري السبيل ، وأجرى لهم الأرزاق ومضى على هذا السبيل سنوات . (٣)

لقد كانت شخصية الحاكم تجمع متناقضات كثيرة مما جعل البعض يرون أنه كان مصاباً بنوع من اللوثة العقلية وعدم اتزان التفكير . (٤)

وشكك بعض المؤرخين في صحة ما نسب إلى الحاكم بأمر الله فيقول ابن خلدون في تاريخه : " وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته . " (٥)

---

(1) القفعة : قفة واسعة الأسفل ضيقه الأعلى (ج) قفاع . المعجم الوسيط
(2) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " مرجع سابق ج٢ ص ٥٥٤ .
(3) نفسه ج٢ ص ٥٥٥ .
(4) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ١٢٧ .
(5) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٦٠ .

obeikandi.com

ولعلنا بعد ذلك نتساءل : ما السر وراء ما رمي به الحاكم بأمر الله من اتهامات ؟

وربما يرجع الأمر إلى أسباب منها :

١- استبداد الحاكم بالسلطة ، وانفراده بإصدار أوامر غريبة دون إبداء الحكمة من ورائها .

٢- تحرك الحاكم بين الرعية بطريقة لم يألفوها .

٣- طعن العباسيين في نسب الفاطميين وعقائدهم .

٤- تعصُّب الحاكم للمذهب الشيعي الإسماعيلي وسبه للصحابة وقتله بعض علماء السنة مما جعل بعض المؤرخين يطعنون فيه ويتقولون عليه .

٥- انحراف رجال مخابرات الحاكم وإشاعتهم أخباراً كاذبة عن أعماله بين الناس .

٦- نجاح أخت الحاكم (ست الملك) في تدبير قتله ، وتشويه صورته لتبرير ذلك .

٧- ظهور دعوى إلى تأليه الحاكم جعلت الناس يطعنون فيه . (١)

وبرغم أن الحاكم بأمر الله كان شاذاً بين حكام مصر ، وشاذاً بين بني آدم ، وأنه صب شذوذه على كل سكان مصر باختلاف عقائدهم وأجناسهم ، وبرغم تشكيك بعض الباحثين في صحة ما نسب إليه من أعمال شاذة إلا أن البعض اتخذ مما نسب للحاكم دليلاً على اضطهاد المسلمين لأقباط مصر !!

والحقيقة أن الحاكم بأمر الله ، إذا سلمنا جدلاً بصحة كل ما نسب إليه ، لا يمثل الإسلام ، ولا شريعته ولقد أنكر علماء أهل السنة عليه أفعاله الشاذة ووصل الأمر ببعضهم إلى إصدار الفتاوى بتكفيره وإخراجه من الملة.(٢)

(1) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٠٨ .
(2) راجع الفتاوى الذهبية في بيان كفر مدعي الأنساب الفاطمية . شبكة الدفاع عن السنة .

obeikandl.com

نهاية الخلافة الفاطمية

كانت الخلافة العباسية ترقب أحوال مصر ، ورأت اضمحلال المذهب الإسماعيلي فيها وازدياد الحركة السنية فتجدد الأمل لديها الاستيلاء على مصر ، وإعادتها إلى السيطرة السنية ، والقضاء على المذهب الشيعي الدخيل عليها ، وشجعها على ذلك تفوق القوة السنية في الشام ورجت أن يتحقق هذا الأمل على يد نور الدين محمود الرجل السني المتحمس في بلاد الشام ، ويروي السيوطي أنه عندما قُتل الخليفة الظافر الفاطمي سنة ٥٤٩هـ ، وتولي ابنه الطفل الصغير الفائز، وصلت أخبار ذلك إلى بغداد فكتب الخليفة العباسي المقتضي عهداً لنور الدين بتقليده على البلاد الشامية والمصرية .

وعرض شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي بعد أن تمكن ضرغام من خلعه وتولي الوزارة سنة ٥٥٨ هـ بدلاً منه – على نور الدين أن يساعده على العودة إلى وزارة مصر وتعهَّد له بألا يتصرف في أمور مصر إلا بأوامره واختياره .

نور الدين محمود يسعى لضم مصر والمصريون يساعدونه

وجد نور الدين محمود في عرض شاور فرصة للتدخل في أمور مصر لإعادة السيطرة السنيَّة عليها والقضاء على المذهب السني فيها ، والتقوي بها على الفرنجة الذين يخشى أن تقع مصر في أيديهم . فأرسل حملة مع شاور تحت قيادة قائده أسد الدين شيركوه إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ ونجحت في إعادة شاور إلى الوزارة ، إلا أن شاور تنكر لحملة شيركوه وعمل على إخراجها من مصر ، واستعان على ذلك بالفرنج ، وخرج شيركوه من مصر بعد أن حاصره شاور والفرنج في بلبيس ثلاثة أشهر وهو يقاتلهم .

عاود نور الدين محمود التدخل في أمور مصر ، فأرسل إليها حملة ثانية سنة ٥٦٢هـ تحت قيادة شيركوه أيضاً ، واستعان شاور بالفرنج عليها كذلك ، وتقاتل

الفريقان شاور والفرنج من جانب ، وشيركوه من جانب آخر عند قرية البابين بمدينة المنيا ، وكان النصر حليفاً لشيركوه .

والذي يهمنا هنا أن حملتي شيركوه على مصر قد لاقت تأييداً من أهل مصر (السُّنَّة) بسبب كرههم للمذهب الشيعي الإسماعيلي الذي حاول الفاطميون بشتى الطرق فرضه عليهم لذا بعدما توجَّه شيركوه إلى الإسكندرية كتب إلى أهلها يستنجد بهم على شاور الذي أدخل الفرنج إلى بلاد المسلمين في مصر(١) فخرج أهل الإسكندرية لاستقباله وفي مقدمتهم نجم الدين محمد بن مصال والي الإسكندرية ، وقاضيه الأشرف بن الخباب ، وناظره القاضي الرشيد بن الزبير وسروا بمقدمه وسلموه المدينة .

أهل الإسكندرية ينصرون صلاح الدين على شاور

ترك شيركوه ابن أخيه صلاح الدين في الإسكندرية مع جماعة من العسكر ورحل في أقوياء عسكره إلى الصعيد ، وظن الفرنجة وشاور أن في استطاعتهم التغلب على صلاح الدين في الإسكندرية فتقدموا نحوها وحاصروها مدة ثلاثة أشهر لكنها لم تستسلم وظلَّت صامدة .

ويرجع صمود صلاح الدين هذه المدة إلى وقوف أهل الإسكندرية إلى جانبه ومناصرته بالمال والعتاد ؛ فقد حشدوا أربعة وعشرين ألف فرس واستعدوا لقتال شاور، وقد حاول شاور أن يثنيهم عن موقفهم هذا ووعدهم بان يضع عنهم الأموال التي تجبى عليهم ، بل ويعطيهم الخمس في الأموال التي يحصل عليها إذا سلَّموا صلاح الدين فرفضوا ، وألحوا في قتاله فحصرهم وقلَّ الطعام عندهم ، ويذكر النويري أن أهل الإسكندرية قالوا لشاور عندما طلب منهم تسليم صلاح الدين : "معاذ الله أن نسلِّم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية " . (٢)

---

(1) سبق أن ذكرنا أن المسلمين أصبحوا أغلبية في مصر منذ عهد الخليفة المأمون أي في أوائل القرن الثالث الهجري حيث اعتنق غالبية المصريين الإسلام ونطقوا باللسان العربي .

(2) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٩٤ .

obeikandi.com

وهذه هي المرَّة الأولى ، فيما نعلم ، التي يشترك المصريون فيها في الجيوش منذ الفتح العربي الإسلامي ، أو ينحازوا إلى طرف في الصراع على حكم البلاد ، وقد سبق أن قلنا أن المصريين – وليس العرب الذين يسكنون مصر – طوال هذه المدة لم ينضمُّوا إلى جيوش ولاة : الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، والعباسيين ، وحكام الدولة : الطولونية ، والإخشيدية ، والفاطمية ، وأنهم طوال هذه المدة كانوا يدفعون الجزية أو الخراج كضريبة دفاع لمن يحكمهم ويدافع عنهم .

وبرغم العروض المغرية التي قدمها لهم شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي الرسمي فلم يسقط عنهم أموال الجباية فحسب بل عرض عليهم خمس خراج مصر لكنهم رفضوا في إباء وشمم وفضَّلوا الجوع وقلة الطعام ومناصرة صلاح الدين بالمال والعتاد والجنود على عروض شاور حليف الفرنج !!

وكان شيركوه قد ملك الصعيد وانضم إليه العربان ، وعندما علم بحرج الموقف بالنسبة لصلاح الدين وأهل الإسكندرية تقدم نحوها ، وهنا أرسل إليه شاور في طلب الصلح فتقبل لأن جيشه قد ضعف وحاقت به الأخطار .

وتقرر الصلح على يخرج شيركوه والفرنجة من مصر . وخرج شيركوه نحو الشام على أن ينصرف الفرنج كلهم عن مصر كذلك .

أما الفرنج فقد تقرر بينهم وبين شاور على أن تبقى منهم قوة في القاهرة وتكون بيدها أسوار المدينة لحمايتها من أي هجوم آخر من ناحية نور الدين ، ويكون لهم في كل عام مائة ألف دينار من دخل مصر . (١)

انظر عزيزي القارئ إلى أي حد وصل الأمر بشاور وزير العاضد ينقض اتفاقه مع شيركوه الذي يقضي بإخراج الفرنج ، ويبقي عليهم ، ويدفع لهم مائة ألف دينار من دخل مصر ليحموه من نور الدين محمود !!

(1) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٩٤ .

مصر والحروب الصليبية

ولم يكتف الفرنج بذلك فراحوا يؤذوا المصريين وأرسلوا إلى عموري ملك القدس ليتقدم لأخذ مصر ، وانتهز عموري الفرصة وتقدم للاستيلاء على مصر، وملك بلبيس ثم اتجه إلى القاهرة وحاصرها مما اضطر العاضد إلى الإرسال إلى نور الدين محمود بالشام ليستنجد به ضد الفرنج وضمَّن مكاتبته خصلاً من شعور نسائه مبالغة في التضرع وطلب النجدة . فأرسل نور الدين محمود حملة ثالثة إلى مصر تحت قيادة شيركوه ، ولمَّا اقترب شيركوه من مصر رحل عنها الفرنج ، ودخل شيركوه مصر وقتل شاور ، وأسند العاضد الوزارة إليه عام ٥٦٤ .

وكان استقرار شيركوه في مصر وتقلده الوزارة إيذاناً بتحول جديد في تاريخ مصر الإسلامية تعود به إلى الوضع الذي كانت عليه قبل سيطرة الفاطميين سنة ٥٣٨هـ .

وعندما تولى صلاح الدين الوزارة بعد موت عمه شيركوه الذي لم يمكث فيها سوى شهرين تقريباً عمل على إسقاط الخلافة الفاطمية بأمر من نور الدين .

وبالفعل استطاع صلاح الدين إسقاط الخلافة الفاطمية بعدما قضى على مؤامرات رجال القصر الفاطمي الذين أرادوا التخلص منه ، وثورة السودانيين عليه .

ومع مطلع سنة ٥٨١ هـ كان صلاح الدين جاهزاً لتحقيق غرضه في محاربة الصليبيين ، وإكمال ما بدأه أستاذه العظيم نور الدين محمود في تحرير القدس من الصليبيين ، وأعلن الجهاد الديني وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العسكر فجاءته من كل مكان من دولته الكبيرة ، وأتم الله تعالى على يديه هزيمة الصليبيين وتحرير بيت المقدس من أيديهم ، وكان لجند مصر ولسلطانها صلاح الدين الفضل الكبير في تحقيق ذلك .

معركة المنصورة

كانت معركة المنصورة صفحة مجيدة في تاريخ مصر في مقاومة المعتدين فعندما عجز الصليبيون عن استرداد بيت المقدس الذي حرره صلاح الدين سلطان مصر والشام رأوا أن يوجهوا حملاتهم إلى مصر بدلاً من الشام لأنها المركز الرئيسي للحملات الموجهة ضدهم فضلاً عن وفرة ثروتها وأهمية موقعها الحربي والجغرافي .

جاءت الحملة الثالثة على مصر عام ٦٤٧ هـ بقيادة " لويس التاسع " ملك فرنسا"

الذي هاجم دمياط وانتصر على حاميتها التي كانت مرابطة تجاهها فتقهقرت هذه الحامية إلى معسكر الملك الصالح قرب المنصورة . وفي نفس الوقت كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد عسكر بجنوده في المنصورة نفسها بعد أن عمَّرها وحصَّنها وجاءته السفن مشحونة بالميرة والذخيرة والرجال من الجنود والعربان .

وكان الملك الصالح مريضاً ، وما لبث أن اشتدت به العلة حتى قضت عليه ، وكان ما نعرفه من كتمان زوجته " شجرة الدر " خبر موته إلا عن اثنين من المقربين ، وأُرْسِل في استدعاء " توران شاه " ولي العهد .

أما المصريون فقد دفعهم حماسهم وخوفهم من تقدم الفرنجة إلى التطوع ، والإسراع إلى المنصورة من كل مكان للدفاع والجهاد . وحين تقدَّم الصليبيون إلى الجنوب بعد استيلائها على دمياط كان الفلاحون والأعراب يسطون على مؤخرة جيشهم ويتخطفون الجنود ويرسلونهم أسرى إلى القاهرة دفعة بعد دفعة ، وأخيراً وصل الصليبيون أمام المنصورة لا يفصلهم عن المصريين والمسلمين إلا ترعة .

وبدأت المناوشات براً بين الفرسان وبحراً بين سفنهما ، وكانت كفة المصريين راجحة، وما من يوم إلا وفيه من الصليبيين قتلى وأسرى ، وكان المصريون يتحايلون على خطف الصليبيين ، وكان بعضهم يعبر خلسة إلى معسكرهم فإذا أحس أدرك أنهم أحسوا به ألقى بنفسه في الماء ،وعاد مسرعاً .

opelkanal.com

وتقدم الصليبيون ودخلوا المنصورة نفسها وانتشروا في أزقتها على حين غرة ، واضطرب معسكر المصريين لكل هذا وكادوا أن يهزموا لولا أن تقدم فريق من المماليك بقيادة فارس شجاع هو الذي صار فيما بعد سلطاناً على مصر وهو "بيبرس" وكرُّوا على الفرنجة وأعملوا فيهم السيوف والرماح ضرباً وطعناً حتى قتل من الفرنجة في هذه المعركة ألف وخمسمائة رجل على رأسهم القائد "كونت دارتوا".

كما أن سكان المنصورة أمطروا الأعداء وابلاً من السهام والحجارة . فلما جنَّ الليل انسحب بقية الإفرنج إلى معسكرهم مهزومين . وأخيراً وصل " توران شاه " وأعلن وفاة أبيه رسميّاً ، وكان أول ما فعله محاولته استرداد دمياط فأمر بصنع المراكب وحملت على ظهور الجمال قطعاً مفصَّلة ، وسارت بها إلى نقط شمال دمياط ، وقطع المدد عن الصليبيين فأصبحوا محصورين في وسط الطريق إذ لم يستطيعوا الاستيلاء على المنصورة والتقدم إلى القاهرة ، ولم يستطيعوا الحفاظ على خط رجعة يمكنهم من الانسحاب عن طريق البحر .

وأصبحت الحملة مقضياً عليها بعد أن ظلَّت مرابطة أمام المنصورة أربعة أشهر دون طائل ، وأحس الملك " لويس التاسع " بهذا الحرج فحاول التقهقر ، وأحرق عُدِّته واستحكاماته وسار نحو دمياط إلا أن المصريين اعترضوه عند " فارسكور " حيث دارت المعركة الفاصلة التي قتل فيها عدد كبير من العدو قدَّره بعض المؤرخين بثلاثة آلاف وقدره البعض بعشرة آلاف ، وأسر منهم أكبر من هذا العدد بينهم عدد من الأمراء ، كما أُسِر " لويس التاسع " نفسه وسجن في دار القاضي " ابن لقمان " في المنصورة . (١)

وفي هذه المعركة تبدَّى التعاون بين المصريين : مسلمين ومسيحيين ، عرباً وأقباطاً، ومماليك ، عسكريين ، ومدنيين . دافع هؤلاء جميعاً عن بلادهم ضد الفرنج

(1) لمزيد من التفاصيل راجع " الثورات في الشرق " عبد الهادي مسعود الفصل المعنون بـ "المنصورة ودار ابن لقمان " .

حبّاً في وطنهم ، وبغضاً في الصليبيين الذين غزوا بلاد العرب وارتكبوا من الفظائع ما سوَّد تاريخهم ، وجعل أحفادهم يعتذرون عما ارتكبوه في حق العرب والمسلمين . (١)

جيش مصر الباسل والتتار

انتهى عهد الأيوبيين في مصر بعد أن أدى مهمته ، وجاء المماليك عام ٦٤٨ هـ

ويظلم التاريخ كل الظلم ويتجنى على الحقيقة والعلم من يزعم أن المماليك شعب آخر غير شعب مصر ، وإلا فما هي الدولة التي استعمروا مصر لحسابها ؟!

وإذا كانت الجنسية تمنح لمن يمضي عشر سنوات في بلد من البلاد فكيف بمن يأتي إلى مصر ولمَّا يبلغ الحُلم ، ثم كيف بأبنائه ، ثم بأحفاده وأنساله من بعده ؟!(٢)

وقد كتب لهؤلاء المماليك المصريين مشاركة مع سائر فئات الشعب المصري أن يقضوا على التتار الذين لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في وحشيتهم وخسة أعمالهم .

وقد قتلوا مليوناً وثمانمائة ألف إنسان بعد خربوا بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

يقول المؤرخ **ابن تغري بردي** : " أمر هولاكو بعدِّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسراً . " (٣)

وبعد أن قضوا على الخلافة العباسية ومدن الشام وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب جاء فيه : " يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حلَّ به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم ... فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا

(1) أواخر نوفمبر ٢٠٠٧ قام ما يزيد عن ٣٠٠ رجل دين وعالم مسيحي بتقديم اعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية .
(2) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٤٥ .
(3) ابن تغري بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ج٢ ص ٢٦٠

obeikandl.com

كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع .. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل .. قد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى . "

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية .

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ .

وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحرير، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشري شهر رمضان: التقى الجمعان، وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، فتحيز التتر إلى الجبل، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتفض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر، وقتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز وكان مع التتر. وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدي السلطان.

ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: واإسلاماه ثلاث مرات، يا لله انصر عبدك قطز على التتار. فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم . (١)

وهكذا كسرت مصر وسلطانها المصري قطز شوكة التتار ثم أتت مصر وسلطانها المصري بيبرس على فلول التتار فهل ترى لهم من باقية ؟

فهل شعب مصر بمختلف طوائفه الذين قهروا الصليبيين وردوهم على أعقابهم والذين قضوا على التتار وأخرجوهم من التاريخ شعب ضعيف وخاضع لكل حاكم كما يزعم المؤرخون ؟!!

هل هذا الشعب البطل الباسل الذي قضى على أقوى قوتين في العصور والوسطى (الصليبيين والتتار) بعد الفرس والروم شعب جبان ، وخانع شعب يجمعه مزمار ، ويفرقه سوط كما يقولون ؟!!

(1) المقريزي " السلوك لمعرفة دول الملوك " ج١ ص ١٤٣

اللهم لا .. فما تعرَّض شعب لمثل ما تعرَّض له من غزاة ومحتلين ومع ذلك ما وهنت عزائمه ، وما خارت قواه .

مصر تحت الاحتلال العثماني

دخل العثمانيون مصر عام ١٥١٦م وكانوا قوماً جبارين في الأرض لا يختلفون كثيراً عن التتار كثيراً قوة غاشمة بلا علم قويم ولا خُلُق كريم ، ولا حضارة ناهضة ولا عمارة متطورة .

فما كاد العثمانيون يغزون مصراً حتى حملوا معهم من مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من التحف والذخائر ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما جمعوا كل رجل ماهر ذي موهبة فنية أو براعة في الصناعة لتستفيد منه الأستانة العاصمة العثمانية ، وتحرم من فنونه وعلومه مصر التي أنبتته .

وقد كانت الصناعة في عهد المماليك مزدهرة قوية وآثارهم من المساجد والأسبلة والمدارس وكذلك المصنوعات الدقيقة المحفوظة بدار الآثار العربية تشهد برقي الصناعة في تلك العهود ... وحينما ارتحل هؤلاء العمال المهرة مع العثمانيين كان رحيلهم إيذاناً بارتحال الرقي الصناعي من البلاد وأغفل العثمانيون مصالح مصر وانتقل مقر الخلافة إلى الآستانة .

غير أنَّ الأتراك العثمانيين اضطروا أمام قوة المماليك المصريين أن يعملوا لهم ألف حساب ، وأن يعتبروهم دولة لها مقوماتها . لقد ظلَّ هؤلاء المماليك يمثلون قوة حربية متماسكة بعض التماسك ، كانوا بالنسبة لهؤلاء يمثلون قوة وطنية وشعبية مصرية ، بل كانوا يعبِّرون إلى حد كبير عن إرادة مصر في الاستقلال وفي القضاء على مظالم العثمانيين .

ويخطئ كل الخطأ من يظن أن بقية طبقات الشعب المصري ، غير المماليك ، وقفت موقفاً سلبيّاً خلال تلك الفترة الطويلة ، وإنما الثابت أن الحيوية المصرية هي التي جعلت لهؤلاء الولاة طابعاً مصريّاً شجع البعض أن يستقل عن العباسيين حيناً، ثم

شـجَّع الـبعض أن يـستقل عـن العثمـانيين حينـاً ، وأذاب هـؤلاء الحكَّـام فـي الكيـان المصريِّ العام . (١)

علي بك الكبير ومحاولة الاستقلال بمصر

عندما تولى على بك الكبير منصب شيخ البلد – وهو أعلى المناصب التي يتقلدها المماليك – دعم نفوذه وتحالف مع الشيخ ضاهر العمر في فلسطين ضد السلطان وقام بطرد الوالي العثماني ١٦٧٩م وأعلن استقلاله بمصر ، واستطاع أن يمد نفوذه إلى بلاد الحجاز ، واليمن وأرسل جيشاً لمؤازرة حاكم فلسطين حليفه ضد السلطان العثماني بقيادة محمد أبو الذهب ، واستطاع السلطان العثماني أن يستميل جيش أبو الذهب بجانبه والقضاء على سيادة على بك الكبير عام ١٧٧٣م ، وعادت مصر ولاية عثمانية وعين أبو الذهب والياً عليها ولكن العثمانيين دسُّوا عام ١٧٧٥م ، وكان لعلي بك الكير تلاميذ مشهورون فمن مماليكه إبراهيم بك ، ومراد بك اللذان حكما مصر بعد أبي الذهب حتى جاءت الحملة الفرنسية ، ومنهم أحمد باشا الجزار والي عكا الذي حارب نابليون وصده عن دخول عكا وأوقف أطماعه في الشام والشرق الأدنى(٢)

المصريون وأول وثيقة لحقوق إنسان

منذ عهد الأمير الكبير علي بك إلى أن جاءت الحملة الفرنسية والشعب المصري يتابع جهاده ليظهر على مسرح التاريخ وليتحكم في تقرير مصيره ،أو على الأقل ليشارك تلكم الطبقة العسكرية المستبدة التي كانت تعتبر نفسها صاحبة الكلمة النهائية في مصير البلاد وهي طبقة المماليك .

وضجَّ فلاحو بلبيس من استبداد بعض المماليك هناك فقامت حركة دستورية ممتازة سجَّلها الرئيس محمد نجيب في كلمته التي افتتح بها لجنة الدستور .

جاء فيها : " لقد كان ماضي أمتنا ضحيَّة من ضحايا أعداء تلك الأمة ؛ فقلد افهموا ناشئتنا ، وعلَّموا معلمينا أننا كنَّا كمّاً مضيّعاً لا يأبه به الحاكمون ولا يحفلون بوجوده

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " ص ٤٧ ، ٤٨ بتصرف .
(2) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٥٥ .

، وهذا كذب صراح أودُّ أن أصححه في دار النيابة وفي يوم الدستور ، وأمام اللجنة التي ستضع لنا مشروع نظام أساسي يسمع فيه رأي البلاد بعد حين .

أود أن أعلن وبأعلى صوت أن أبناء مصر لم يكفُّوا عن العمل لاستكمال حقوقهم ورد العدوان عن دستورهم غير المكتوب دستور حرية الفرد ، وشرف العقيدة ، والتزام الحاكم لصالحهم ، فالغلاف الخارجي لحياة المصريين في القرنين الماضيين غلاف الاستسلام والإذعان والمهادنة ، غلاف خادع كاذب ، وأنا باسم الأمة أزحه من مكانه ، بل باسمها أمزقه تمزيقاً ؛ ليتضح للعاملين صورة مصر الحرة على حقيقتها .

في نحو سنة ١٢٠٠ هـ وقبل أن يستتب الأمر لثورات أوربا الكبرى قامت مصر بإحدى ثوراتها بقيادة الشيخ الدرديري ثمَّ الشيخ السادات ، طالبت بما طالبت به أمم الغرب بعد ذلك من ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب ، وأن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم ، وألا تمتد يد ذي سلطان إلى أي فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع ، وقد كبر على الأمراء في ذلك الحين أن يذعنوا لشيء من هذا ، لكنهم لم يثبتوا حتى اضطروا إلى ذلك اضطراراً فكتبوا فيما بينهم وبين الشعب حجة وقَّعوا عليها وسجلها القاضي الشرعي ، وقد توافق رأي أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة إعلان حقوق إنسان .. " (١)

وتفصيل هذه الثورة كما يرويها الجبرتي هي :

في سنة ١٢٠٩هـ حضر أهل بلبيس إلى الشيخ الشرقاوي وشكوا من محمد بك الألفي وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم مالا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئاً ففعل ذلك في ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ .

(1) نقلاً عن عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " ص ٥٧ ، ٥٨ .

بلغ براهم إبراهيم بك اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال:لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقيل: له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ .

فقال : حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد وأرسل إبراهيم بك إلى المشايخ يعضدهم ويقول لهم إنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي وأرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك فبعث مراد بك يقول أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية (المنح السلطانية) ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثاً ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة .

وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والموائد المقررة من قديم الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة وكان القاضي حاضر بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وأقر من عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا .

وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وإمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال . " (١)

وهذه الوثيقة التي انتزعها الشعب المصري من حكامه تعتبر وثيقة لحقوق الإنسان كأقدم ما تكون الوثائق أعلنها شعب مصر منذ أكثر من مائتي عام ليفهم الناس عن هذا الشعب غير ما يحاول المؤرخون أن يذيعوه في الناس .

وليدرك العالم أن مصر العظيمة صاحبة أول حضارة عرفها التاريخ هي مصر صاحبة أعظم ثورة شعبية سلمية ثورة ٢٥ يناير هي مصر الحريصة على العزة والكرامة وحقوق الإنسان .

***

(1)عبد الرحمن بن حسن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " دار الجيل – بيروت ج ٢ ص ١٦٦– ١٦٨

obeikandl.com